

«ديوان الأغاني».. رحلة مع مئة وخمسين قصيدة للمغربي حمادي التونسي

وأبرز أن التجربة الشعرية للراحل جاءت متنوعة في هندستها وفي لغتها، فكشفت عن تعاطيه القصيدة الفصيحة، والقصيدة الحرة، والمسرحية الشعرية، وقصيدة الموشحات، لافتاً إلى أن تأمل قصائد هذا الديوان يبرز تنوع القضايا التي عالجهما الشاعر "مما شغل فكره واشتغل به ذاتياً واجتماعياً وفنياً ولمست الإنسان والمجتمع والرفاء والنزعة والعشق والغرام والوفاء والمناسبات الدينية والروحية والوطنية والقضايا العربية، ولاسيما قضية فلسطين".



حمادي التونسي اهتم بالشعر وخاصة القصيدة الزجلية التي تتميز بمعجمها اللساني المناسب وريقها لغة وصوتاً وإحساساً وموضوعاً

وأكد الباحث أن "من حسنات التونسي اهتمامه بالشعر، وخاصة القصيدة الزجلية التي تتميز بمعجمها اللساني المناسب وريقه لغة وصوتاً وإحساساً وموضوعاً، وهو ما يظهر في نصوص ديوانه الجامع الذي حقق شعبية منسجمة في لغتها، وأسلوبها، ومعانيها، وصورها، وتفاعلها لحناً ووجداناً وصوتاً وأهلاً، حولها إلى قصيدة غنائية طربية تنفذ إلى القلوب، وتتردد على جميع الألسنة".

وأضاف أن حمادي التونسي عرف بمهارته "كيف يحول قصيدة الذات ويجعلها تتنفس الجمال بنفس عال ولغة مختصرة، تعكس بهاء كلماتها، وبساطة صورها، ونبض مضمونها الذي يأسر القلوب ليتحول مستمعها بفؤوية إلى تواصل إنساني إن لم أقل إلى جزء من الأغنية، مهما كان موضوعها ومضمونها لأنه شاعر يكتب بحب ومحبة، وهو يغوص في المعجم المجتمعي المتنوع، فيختار منه ما ينفع الذات، وتطرب له الروح وتتفاعل معه النفس وكأنه معجم ينتمي إلى ما يعرف بالسهل الممتنع".

وخولت القصائد المغناة للفرسان حمادي التونسي بأن يصبح إحدى العلامات المشرفة والمتوهجة للأغنية الطربية الحديثة والمعاصرة في المغرب. وبصم الراحل على مسيرة فنية متميزة رصعتها أعمال مسرحية راقية، وكتابات ذاكرة ووجدان جمهوره من مختلف الأجيال.



عبد الوهاب الدكالي صنع مجده بأغاني التونسي

الرباط - صدر حديثاً عن منشورات جمعية "رباط الفتح للتنمية المستدامة" مؤلف جديد بعنوان "حمادي التونسي: ديوان الأغاني"، يرصد مكان الإبداع في التجربة الشعرية للفران المغربي الراحل الذي يعد أحد رواد السينما والمسرح المغربي وخاصة المسرح الإذاعي. ويتضمن هذا المؤلف الجديد، الذي أعده وقدم له الباحث مصطفى الجوهري، 150 قصيدة غنائية باللغة العربية الفصحى والدارجة المغربية، لحناتها وأدائها أسماء فنية بارزة في الساحة الغنائية المغربية، أبرزها محمد فويتح، إبراهيم العلمي، عبد الوهاب الدكالي، بهيجة إدريس، عبد الهادي بلخياط، المعطي البيضاوي، عبد النبي الجراي، عباس الخياط، عبدالقادر الراشدي، محمود الإريسي، عبدالواحد التطواني، إسماعيل أحمد، وأحمد الغرابوي، عبدالمعظم الجامعي، وغيرهم.

وتتمثل الأغاني التي يضمها الكتاب مسيرة فنية هامة لحمادي التونسي امتدت لعقود للفران الذي رحل عن عالمنا في أكتوبر 2020 عن عمر يناهز 84 سنة بعد معاناة مع المرض.

ويعتبر الراحل، المولود بالرباط سنة 1934، من رواد الفن في المغرب. انضم إلى فرقة الراديو والتلفزيون المغربي سنة 1954 وإلى فرقة المعمورة في سنة 1959 وهي فرقة مسرحية تعتبر من أولى الفرق في المغرب، وقدم أول أعماله المسرحية "تمن الحرية" عام 1957 لينطلق في تجارب متنوعة في عوالم الفن.

وتنوعي إضافة إلى بصماته المميزة كتمثل فهو يعتبر من أشهر كتاب الكلمات المغربية حيث كتب كلمات ما لا يقل عن 152 أغنية وتعامل مع كبار المطربين المغاربة وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد زود الموسيقار عبد الوهاب الدكالي سنة 1959 بإحدى أنجح أغانيه وهي أغنية "يا الغادي فطوموبيل".

وإذا كان جيل عبد الوهاب الدكالي وعبد الهادي بلخياط يوصف بـ"الزمن الجميل" للأغنية المغربية، فإن الفضل في ذلك يرجع للتونسي بدرجة كبيرة، جندي الخفاء، الذي اختار أن يبدع للأخريين ما يطربون به مسامح المغاربة؛ "ما بان عليه خبار" لعبد الوهاب الدكالي، "ما فيك خير يا قلبي" لعبد الهادي بلخياط، أغنان من تأليف التونسي سلطت بها نجوم وخذلت اسمه بحروف من ذهب.

وكتب الباحث الجوهري، في تقديمه لهذا المؤلف الذي يقع في 215 صفحة من القطع المتوسط، أن الشاعر حمادي التونسي يعتبر "من الشعراء القلائل الذين أبدعوا بحق القصيدة الغنائية بتلوبانها المختلفة، واعترف له كل الذين اطلعوا أو استمعوا إلى أعماله الطربية بالرئاسة الراقية؛ ويؤكد هذا الاعتراف تعامله مع العديد من الفنانين الكبار من ملحنين ومطربين ومطربات، وهي أسماء فنية لامعة ساهمت إلى جانب النصوص الشعرية في نهضة الأغنية المغربية الحديثة".

وتتميز التونسي بغزارة كتاباته وموهبته المتقدمة في مجال التأليف والكتابة القصائد الزجلية بشكل خاص، لكنه امتاز عن غيره من شعراء الزجل بما يمتلكه من ثقافة عالية وخصبة ومرجعية فكرية وأدبية وتراثية، وهذا ما كان ينهل منه أسوة بجيل من المؤلفين المعاصرين، فاتحاً شعره على قضايا وجدانية ووطنية واجتماعية لكن برؤى عميقة.

«بيلا تشاو» الإيطالية و«مع العزابة» التونسية ملحمتان حزینتان من صفتي المتوسط

ميلفا تغادر مشعة مثل أيقونة وصليحة تموت وحيدة بلا قبر



الأغنية الخالدة ملاحم حية (لوحة للفران تحسين الزبيدي)

والدتي يا ليتها عقرت ولا جابنتي/ها يا جبل وسلات وسع بالك اللي جرى للحامة بجرالك/يا لندره (هل يا ترى) مكتوب وإلا دعوة وإلا خروجي من بلادي شهوة /يا لندره يا ضيم تتلاجاشي وإلا نموت بعلتي في جاشي".

وتجدر الإشارة إلى أن توثيق هذه الأغنية في ما بعد، لم يكن أمينا، وذهب إلى تحريف كلماتها لغايات سياسية ومراعة لاعتبارات اجتماعية ومؤسسية، خصوصا لدى الفرقة الرشيدية التونسية التي أخذت على عاتقها توثيق وتهذيب وتنشيد "بعض الأغاني التونسية".

وفي هذا الصدد، يشير الشاعر التونسي المعروف الجليدي العويني، ضمن مقاله "نصوص أغاني صليحة: المنطلقات، المضامين والموازين مقالات عن صليحة"، مركز الموسيقى العربية والمتوسطية، إلى دور الفرقة الرشيدية والإذاعة في نزع كل ما يدين أسرة الحسينيين الحاكمة من الأغنية "عزز تأسيس الإذاعة هذا الخيار في انتقاء المفردات، لأن المحطة الوليدة كانت تحتاج أغنان تحترم أعراف وأخلاق مستمعها والرشيدية كانت الممؤن الأول في هذا المجال؛ وقد سعى الشعراء إلى إجراء تغييرات حتى على الأغاني التراثية".

ويشير العويني إلى مقاطع مفصلية في الأغنية، ففي مقطع "بكرتي شردت مع العزابة" مثلا تحول البيت الأصلي من "يا سابقين الإبل يا جمالة/ تونس بعيدة والعرب قتالة"، إلى "تونس عزيزة والعرب رجالة".

عبث مقص الرشيدية بكلمات الأغنية التي أُرخت دون مواراة لدموية الدولة الحسينية، في تملق لروايات التاريخ المغلوطة التي دونها القريبون من السلطة الذين يحكمون.

شمل الأمر عدة أغان جرى طمرها أو وصمها بالخليعة، تأكيداً لمشروع الرشيدية الوليد القاضي بتطهير الأغاني التونسية، وتجريد مضامينها من إشارات قد تدين تاريخ المملكة الحسينية وقتها.

كيف لا والرشيدية التي أسست سنة 1934 تحت حكم البايات قد سُميت تيمناً باسم محمد الرشيد باي، ابن الحسين بن علي وأحد الفاعلين في الفتنة الحسينية -الباشية التي تمثل الخلفية التاريخية للأغنية.

وبالعودة إلى هذه المقاربة بين "بيلا تشاو" الإيطالية و"مع العزابة" التونسية، فإن المرء يقف على حقيقة تاريخية مفادها أن أعذب الأغاني وأكثرها خلوداً في وجدان الناس، هي تلك التي ارتبطت بالملاحم والعذابات ثم استقرت في السجلات بعد انتصارات، وكبرت بعد تراكم مثل كرات الثلج.

مطربة تونس الأولى صليحة (1914 - 1958) معاناة نساء أخريات في جبال "وسلات" بالقيروان وسط البلاد التونسية نتيجة الظلم والتسلط الذي حل بتلك المناطق ذات الأغلبية الأمازيغية، من قبل السلطات العثمانية المتحالفة مع القبائل البدوية في ما يعرف بـ"الفتنة الباشية" في تلك الحرب الأهلية التونسية منتصف القرن الثامن عشر.

الأغنية المحرفة

أغنية "مع العزابة" هي من التراث التونسي الحزين الذي بقي "مقوشاً" في الذاكرة الشعبية" كما يقول مؤرخو الأغنية الفلكلورية، وذلك على عكس "بيلا تشاو" التي تحمل طابعاً مرحاً رغم خلفيتها الدرامية.

وهذه الأغنية التي مازال يؤديها التونسيون بشحن كبير، تُورخ للمحنة التي تعرض لها سكان جبال وسلات من البربر، وتفرقهم أثناء النزاع على السلطة بين الشق المرادي (نسبة إلى مراد الثالث) والشق الحسيني (نسبة إلى حسين باشا) زمن الشتات الذي حل بالبلاد أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر. كلمات الأغنية منسوبة إلى امرأة وسلاتية (من جبال وسلات) كانت تغنيها من كثرة اللوعة والحرقلة التي أصابها بعد ضياع ابنتها البكر منها (سالمة) خلال عملية التفرقة والتشتيت التي مارسها الحسينيون ذوو الأصول العثمانية، وحقاؤه البدم من عرب المنطقة.

وتتضح الإشارات السياسية في المقطع الذي يحيل إلى أزمة منطقة الحامة، جنوب تونس والتي سبقت حملة التهجير تلك، ومائلتها في العنف والدموية "يا أيها الجميلة، يا رفيقة، احمليني بعيداً، وداعا أنتي ساموت، وإن مت، كمقاوم، وداعا أنتي الجميلة".

الكثير من الأغاني خلدت في ذاكرة الشعوب وانتشرت حتى صارت ترددها في كل محفل، حتى أن الكثير من المرددین لا يعلمون القصص الأصلية لهذه الأغاني. أسباب خلود أغنية مقارئة بأخرى قد يتجاوز للحن والكلمات والقيمة الفنية إلى قدرتها على تصوير ملاحم الشعوب، فما يبقى ويخلد في الذاكرة الجماعية بوعي أو غير وعي هو الملاحم.

في حقول الأرز، حيث كانت من أهم الأناشيد خلال موسم إزالة الأعشاب الضارة، بالأخص في وادي "بو" شمالي إيطاليا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وكانت توكل هذه المهمة الشاقة إلى النساء الأوفر في المنطقة، وباجور بخسة، مما جعل التخلص من هذه الأشغال الشاقة انتصاراً في حد ذاته، وتحراً حقيقياً من أغلال العبودية، بالإضافة إلى ما يوازنها من قصص حب مؤثرة في تلك البيئة التي تستعجل، تراثاً موسيقياً مبهلاً أو حتى تضمنها إشارة عمل درامي جماهيري في مسلسل تلفزيوني كما هو الشأن بالنسبة إلى أغنية "بيلا تشاو" الإيطالية الشهيرة التي تضمنها المسلسل الإسباني "لازارا دي بابل" الذي انطلق موسمها الخامس منذ أيام قليلة على شبكة نتفليكس.



حكيم مرزوقي كاتب تونسي

يحدث أن تعيد اكتشاف أغنية فلكلورية بسيطة الكلمات، لكنها عظيمة المعاني والدلالات من حيث أسباب ظهورها وارتباطها بحدث كان قد هز وجدان أمة بكاملها.

ويحدث أن تمر هذه الأغنية بصفة عابرة في حفل يستجمع ويستنهض مستعجلاً، تراثاً موسيقياً مبهلاً أو حتى تضمنها إشارة عمل درامي جماهيري في مسلسل تلفزيوني كما هو الشأن بالنسبة إلى أغنية "بيلا تشاو" الإيطالية الشهيرة التي تضمنها المسلسل الإسباني "لازارا دي بابل" الذي انطلق موسمها الخامس منذ أيام قليلة على شبكة نتفليكس.

ملحمة شعبية

الحالة العكسية صحيحة أيضاً، وهي أن تحيك أغنية فلكلورية ترددها العامة في مناسباتها الشعبية بصفة تلقائية، إلى حكاية أسرة أو واقعة تاريخية ترتقي إلى مصاف الملحمة وتوفيق لمرحلة هامة من تاريخ شعب ما.

الأملات كثيرة ومتنوعة في موروث الشعوب ولدى جميع الثقافات، مما حدا بالمنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) إلى جمع وتوثيق هذا التراث اللامادي باعتباره مكوناً للذاكرة الإنسانية، وعنصر تقريب بين الأمم والشعوب.

المونون والمهتمون بالتراث الغنائي العالمي اهتموا الأناشيد وأهزج ذاع صيتها إلى درجة أنها ترجمت إلى مختلف لغات العالم محتفظة بنغماتها الأصلية، مما يؤكد على أن الأغاني العظيمة يكتب لها الخلود بالحنان قبل كلماتها.

وبالعودة إلى أغنية "بيلا تشاو" الشهيرة، التي دأب الإيطاليون على إنشادها من شرفات منازلهم في ذكرى يوم التحرير، عند انتهاء الحكم النازي في البلاد والقبض على الحاكم الفاشي بينيتو موسوليني، أثناء الحرب العالمية الثانية وانتصار المقاومة الإيطالية.

"بيلا تشاو" أي "ودعا أنتي الجميلة" تعتبر من أبرز الأغاني الفلكلورية في إيطاليا، انتشرت مع العلامات الإيطالية

أعذب الأغاني وأكثرها خلوداً في وجدان الناس تلك التي ارتبطت بالملاحم والعذابات ثم استقرت في السجلات بعد انتصارات

في الضفة الأخرى للمتوسط أي لدى الجبران الجنوبيين للإيطاليين الذين جمعهم عبر التاريخ القديم والحديث، الحروب والضغائن كما الصادقات ووحدة المصائر، كانت تغنى، وقبل عقود من نشوء قصة "بيلا تشاو" وارتباطها بمعاناة النساء في حقول الأرز، أغنية "مع العزابة" التي اشتهرت بادائها فيما بعد